حين جاءت الملكة

قصة
بقلم
كمال الدين محمد

ـ أ ـ

وصلت السيارة الى مستشفى التوليد . توقفت امام البوابة الحديدية الصدئة رغم آثار طلاء قديم ونزل السائق البدين واعانني على رفعها من المقعد الخلفي . عبرنا بها بوابة الحديقة الامامية المهملة . كان الليل مخيما . الممر عبر حديقة المستشفى قاتم . الظلال كثيبة . واحتمالات التعثر باحد صناديق القمامة او اكوام الشجر اليابس كبيرة .. كانت انفاس الاغصان زنخة كزفرات عجوز، تمتزج برائحة الليل ورائحة مألوفة كثيرا في ردهات المستشفيات .. رائحة ادوية ويود وشاش ابيض ومرض .. بين يدي الجرح يتسع والتلوث يلطخ مقدمة قميصي وبنطالي ، ومن حين لآخر تنبعث من جسدها النازف انة ثقيلة محرورة ، والممر الطويل امامي يتسع بعمق الجرح ، وعينا السائق تومضان بين الحين والآخر .

نجتاز الممر الكثيف الاشجار والعتبة المبلطة بشحوب الضوء ، ونقتحم بقع الضوء ومصابيح المستشفى ، وننزرع في قلبينا الرفع الضوئية اذ تستقبلنا سواعد قوية منقذة تعاوننا على رفع ذلك الالم الحي على نقالة لتمضي به صوب غرفة العمليات .

مشيت خلف بركة ترشح دما بغزارة ، ذاهلا عن ما حولي.. اضواء المصابيح تنتشر في السقوف وتتراقص في عيني ، وانا اوشك ان اهوي من فرط التعب . قالت :

ـ (انت كمن يلعب بالنار) .. اجبتها : (لست بساحر !)كانت كتب التاريخ مكدسة على المنضدة . سبابني تنغمس في سيل اللعاب .. تقلب الصفحات المتراكمة .. عيناي كليلتان وقلبي حزين .. ابدو كتائه في صحراء ابحث عن شيء مفقود قالت : (عم تبحث ؟) اجبتها : عن نفسي !) وكانت ترقد على الفراش .. بطنها تنتفخ كقربة ماء . لا تكف عن تمسيد البطن المشرخ ومرافيتي بضيق وتبرم .. قلت لنفسي « هي امرأة لا يهمها شيء غير الثرثرة مع النساء العجائز وغسل الصحون والملابس والنوم الثقيل الهائل : مفتوحة الفم وزافرة من منخارها المستطيل شخيرا جافا كتلك الصحراء التي امامي » .. ابحث وابحث وابحث .. وهي تندب حظها اذ قبلت بالزواج من رجل مجنون لا يشبع رغباتها التي لا تشبع .. اشتكت بي عند الجيران في بداية فترة زواجنا .. قالت لا ينام ويدعني اتلوى على الفراش وحيدة ويمضي مع كتبه .. يركنني في دولاب الملابس وينام بين السطور .. كت وما زلت اجد لها عذرا .. لكن ماذا بوسعي ان افعل لها وذاتي ضائعة ؟

ـ ب ـ

(ملكتنا ضائعة ايها الاخوان .. ملكتنا تاهت في كتب التاريخ وآخر سطر عثرت به عنها يشير الى فرارها من القصر عبر نفق سري تحت الارض ، وان خادمها الذي دلها على الطريق استولى على كل مجوهراتها وحليها واطلقها تمشي في المسالك والدروب عارية وحيدة ترتعد فرائصها من البرد كأرومة بلا فروع ..)

انها تبدو وتختفي .. وانت تعدو خلفها .. والسيارات والاضواء والاصوات المدوية ، والتشكيلات ونار الشك واليقين المجوسية .. والعري .. منيت حتى تجرحت قدماك .. طوفت في البحار والسهول .. ستجدها ذات يوم امرأة بلا قامة .. امرأة كالصهيل .. وفمها كخاتم .. بحثت عن الخاتم في تراب الغمامات فلم تعثر على شيء .. قابلت العمال في الموانيء .. سألتهم عنها .. وهل رآها احدهم على احدى البواخر .. سألت عنها الرجال والنساء والرعيان .. واحيانا كنت تعثر على من يدلك ببعض الاشارات عنها .. شهادة راع في الجبل :

.. وكانت زخات المطر تنهمر بغزارة في الوادي حين دفعت بقطيعي الى كهف . فرأيتها .. لائذة بزاوية مظلمة .. كانت ترتجف وثوبها المرقع القديم قد اصابه البلل .. حين رأتني اوشكت ان تصرخ من الخوف ظنا منها بأنني احد متعقبيها القدامى .. طمأنتها وأخرجت حبات من البن .. وحين هدأ روعها ناولتها لبنا وكسرة خبز جافة .. وسألتها عمن تكون ؟ فأجابت : انها الملكة .. وانها فقدت العرش .. ولم تستمر .. نهضت حال انقطاع هطول المطر .. همست بشفاه ترتجف : (انها خائفة .. وان الغزاة لا زالوا يتعقبونها ولم يكتفوا بالعرش) .. كانت اسنانها تصطك وهي تقول ذلك .. وظننت انها اصيبت بالبرد وربما كانت نهذي ،ولاحظت هي اريبابي في صحة قولها فتركتني ، ومضت تجرجر خطاها المتعبة ..

ـ ج ـ

رحت امشي بذهول وراء النقالة وبركة الدم تفور ..والشاش الابيض وجدائل القطن في ايدي الممرضات تتبقع .. وخطاي تائهة .. امام باب غرفة العمليات صدتني الممرضة فتراجعت .. رأيت الطبيب الجراح يدلف الى الغرفة الكئيبة واشارة حمراء اعلى الباب وربت على

كتفي . التفت فابصرته : السائق البدين الطيب الملامح .. وجهه مفسول .. وذراعاه .. لكن لا زالت ثمة آثار بقع دم داكنة على القميص .. تنبهت لذلك ، ودسست يدي في جيبي واخرجت المحفظه واستللت دينارا .. ناولته .

قال : (هل من خدمة اخرى اؤديها لك ؟)

أجبته : (شكرا ..)

رافبته وهو يسير متباطئا جارا سافيه المكتنزين .. لو ان لديها اهلا او اقارب لطلبت منه ان يمضي ويعلمهم ، لكن ليس لها احد سواي .. احترت فيما افعل لبعض الوقت ، وحين بين لي ان وقفني امام غرفة العمليات ليس لها جدوى .. اتجهت الى اقرب مقعد وتهالكت بجسدي عليه .. وبعد لحظات دنت ممرضه عجوز طيبه وجهها منجعد وناولتني وسادة لارقد عليها ..

قلت لها بقلق : (وهل سيطول الامر ؟) .

اجابت مبتسمة محاولة طمأنتي : (انها ولادة متعسرة .. وربما طال الامر .. خذ شيئا من الراحة) .

وتركتني .. فامتددت على المقعد ورأسي على الوسادة .. وعيناي في السقف .. واوصالي تتداعى وتتحطم ، وصراخ زوجتي الموجع وراء الباب ذي الاشارة الحمراء يعلو ويعلو ويؤثر على اعصابي ... وانا اسوح .. اسوح .

ـ د ـ

كانت على مسافة خطوات جالسة على المقعد المستطيل في قاعة الانتظار المضيئة .. حدقت في وجهها .. الندبة الغائرة في جبينها ، والعينان الموغلتان في الالم .. لاحظت انها حافية وان اظافر قدميها متقشرة .. وان اصبعا من اصابعها مبتور ..

كانت ترتدي ثوبا اسود مهلهلا مليئا بالخروق وتربط حول رأسها عصابة مسخة .. جفونها متقرحة منتفخة بما يشي بانها لم تنم منذ امد .. كان الشبه بين وجهها الحالي ووجهها القديم كبيرا .. حاولت استرجاع ملامح وجهها عبر اتذاكرة الصدئة .. آخر لقاء .. في مقهى مزو .. تصب القهوة من ابريق نحاسي .. يومئذ كانت جميلة كفراشة وهي تطوف بين مناضد المقهى مع البنات حاملة طلبات الزبائن .

وجهها كان صبوحا ابيض تبلله قطرات الندى الساخن . خمرة خديها كزنابق وفمها داكن مبتل كلون التين .. لم تقدر على تحويل نظراتك عنا رغم لكزات صديقك ومحاولاته ابعاد ـ انتباهك .. عندما سألته أجاب : (بانها احدى البنات اللواتي يبعن الهوى في الشوارع الخلفية ..)

ـ هـ ـ

انها الملكة ايها الاخوان .. انها ملكتنا العظيمة المفداة .. كانت تجلس امامي على المقعد الطويل في مستشفى الولادة .. تحدق في وجهي بامعان .. البنات الحوامل يقعدن حولها منتظرات الطبيب، بعد ان وجدن في حكاياتها القديمة تسالي وعزاء .. راحت تحدثهن بقصتها .. قلن لها : (لماذا تتشرخ قدماك ؟) .. اجابت : بانا تطوف مشيا على الاقدام بكل الارجاء .. وان ليس لها وطن .. قلن لها: (ولماذا تجهدين نفسك وراء مالا طائل تحته) .. أجابت :

(انها اضاعت عرشها والخاتم الذي أهداها « سليمان » في التراب وانها لا زالت تبحث عنهما) قلن لها : (وهل وجدته ؟)

قالت : (لا ..) وانفمر وجهها في الاسى ، التوى فمها من القهر ، وبدأت تدكن شفتاها .. قالت احداهن : (انها مسكينة !)

قالت اخرى : (ضيعت عرشا)

قالت ثالثة : (منذئذ وهي تبحث عنه مفتشة فيكل الجهات) .

قالت رابعه : (انها مخبولة)

ـ و ـ

خرجت والبنات من المقهى .. في يدها لفافة لا اعلم على ماذا تحتوي .. قلت لصديقك .. (هيا) .. سأل مندهشا : (الى اين ؟) (سنلحق بها ..) تخطو امامكما برشاقة مثيرة خفها موجة من روائح عطريه عابقة .. رائحة ليمون ، تل .. البنات يحطن بها .. عنقها طويل ممشوق تعنق الها منتصب كالعلم .. كانت تتدثر برداء اخضر ، وحين قدمت لك كوب القهوة دسست بين اصابعها خمسة شلنات .. همست وهي تنحني بالقهوة فتحس على وجهك احتكاك وحرارة نهديها الطفلين :

(سنلتقي في منتصف الشارع) عندما اخبرت صديقك وانتما تلحقان بها قال : (ما الذي يستهويك فيها) .. لم ترد ان تجيب .. كنت تحيا في لحظة اعظم من أن يصرح بها .

في منتصف الطريق تركت زميلاتها وانجهت صوب احد الشوارع الخلفيه المظلمة .. قال صديقك : (هيا آرني شطارتك) ..تركت صديقك وعدوت صوب الشارع الفرعي .. تعثرت في ركضك ببعض الاشياء .. رحت تحاول رؤيتها .. سمعت هسيسا خافتا .. التفت .. احسست بيد ذات اربع اصابع تجذبك الى مدخل مظلم .. درج مظلم .. ردهة مظلمة .. حجرة مظلمه .. لم ترى شيئا ، ولكنك احسست بذات الانامل الاربع اللدنة تخلع ملابسك .. قطعة قطعة .. لا ترى شيئا في الظلام .. ولكنك تسمع وتحس لفح الرغبة حين تجاسدتما على ارضية الحجرة .. كان لهاث وانطفأ فجاة .. ونمت .. نمت طويلا .. وحين نهضت كانت لا تزال نائمة ، وضوء النهار الابلج يتسلل من شقوق جدران الحجرة .. دنوت من وجهها القديم وحدقت بامعان فذهلت .. كان العرق يسوح كسيل على وجهها ويجرف امامه الاراضي والبنايات والماشية والناس واصبح وجهها فجاة مجدبا كصحراء ممحقا كالموت .. بدا تعيسا متجعدا كوجه ارملة عجوز وهو في غمرة الالم النبيل .

ها هي الملكة امامك تحدق في السكون والبنات الحوامل حواليها قاعدات يلتقطن الحكمة من شفتيها .. ها هي الملكة التي نمت على اصداء لحنها الكسير . انها تحفر في قلبك ذكرى لا تنمحي.

كان الصراخ من غرفة العمليات قد كف والقاعة تغص في سكون .. وتذكرت زوجتك التي جئت بها في ولادة متعسرة . لقد نسيتها تماما بعد حضور الملكة .. لا احد يستحق ان يبذل له اهتمام الان سواها .. ترافبها بعينين مجهدتين . رأسك يغلي كمرجل .. الارق والاجهاد يتملكان جسدك المتعب فيسوح اكثر على المقعد .. لا .. لا .. لا ينبغي ان تنام .. يجب ان تظل مستيقظا . نهضت .. سرت في ممر المستشفى الطويل المضيء .. ممرنا عضلات ساقيك المتيبسة .. لا تفتأ ترمي الملكة في مجلسها بطرف عينيك وتصغي باذان مرهفة الى نصائحها .. رحن يسألنها : (هل انت حبلى ؟)

أجابت : (لا ..)

قلن لها : (ولماذا جئت الى هنا ..)

قالت : (جئت لارى الطبيب .. انا عقيمة ..)

قلن لها : (وهل سبق ان ضاجعت رجلا ..)

قالت : (لا ..)

فلن لها : (وكيف تكونين عقيمة وانت لم تضاجعي رجلا ؟).

طوقت على شفتها غمامة اسى .. كان العرس هناك .. كان رجلها قد انحدر ورمى بنفسه وحصانه في البحر لانه لم يستطع رؤية العرش وهو يتهاوى تحت اقدام جحافل السر .

نهضت الملكة من مقعدها حزينة .. ان رجلها قد مات .. احاطت بها البنات .. احطن بها من كل جهة .. لم استطع احتمال ذلك المنظر المؤلم .. كانت على وشك ان تخطى عتبة البوابة .. البنات يواسينها لكنها لا تجيب .عدون وسبقنها .. وقفت تحت عتبة بابها العالي .. هتفت بها ..

ـ (أيتها الملكة ! أيتها الملكة ! .. الى اين تمضين ؟! رعاياك ينتظرون قدومك .. هل ستتركينا يتامى ؟ لقد ظللنا منذ زمن نبحث عنك .. ننقب في قلوب العذارى .. في شعور النساء والخيل ... الى أين تمضين أيتها الملكة ؟)

قالت بأسى : (لا اعلم ..)

فلت وانا اضع يدي على بطن بنت حامل : (هنا عرشك أيتها الملكة .. لقد استعدناه .. نفد مضى الفزاة منذ زمن .. ابقي معنا أيتها الملكة ..)

ـ ح ـ

شعرت بضغط قوي على كتفي .. انتفضت وانا اهتف مذعورا : (أيتها الملكة ! أيتها الملكة !)

قالت الممرضة العجوز وهي تبتسم : (ماذا تهرف ؟)

ـ (أين ذهبت الملكة ؟)

هتفت بهلع ..

ابتسمت الممرضة : (هل كنت تحلم ؟)

فركت عيني بشدة : . هل كنت احلم حقا ؟ جلت بعيني فيما حولي ..

نفس المقعد المستطيل امامي فارغ .. الممر الطويل .. المصابيح مشتعلة في السقوف

همست الممرضة : (الا تريد ان ترى الوليد ؟)

هتفت بفرح : (هه !! الوليد) ووثبت راكضا خلفها .. وفي أحد عنابر المستشفى دلتني الممرضة على سريرزوجتي التي ابتسمت لي ابتسامة ممزوجة بعذاب قديم .. دنوت منها .. وانحنيت على الطفل بين ذراعيها .. كم كان يشبهني . قبلته واستدرت الى زوجتي ودنوت بوجهي من وجهها .. قطنت الى عمق الشبه بينها وبين وجه الملكة ..

.. طبعت قبلة على وجهها الشبيه بخاتم سليمان

ـ عدن ـ

★

شركة خياط للكتب والنشر (ش.م.ل)

٩٢ ـ ٩٤ شارع بلس ـ ص.ب ٦٠٩١

بيروت ـ لبنان تلفون ٣٤٤٩٩٨

يسرها أن تقدم

الموسوعتين الكبيرتين

موسوعة الشعر العربي

الشعر العربي في شتى عصوره ومناطقه منذ العهد الجاهلي حتى عهد النهضة العربية الحديثة

٢١٥ شاعرا من العصر الجاهلي
٩٠ شاعرا من العصر المخضرم
٢٤٥ شاعرا من العصر الاموي
٥٢٤ شاعرا من العصر العباسي
٢٧٠ شاعرا من العصر الاندلسي
٤٣٠ شاعرا من عصور الانحطاط
٢٩٢ شاعرا من عصر النهضة العربية
شعراء عديدون من العصر الحديث

دراسات قيمة عن كل شاعر : حياته ، بيئته ، شعره ، عرض مشوق لافكار الشاعر وأغراضه ومقاصده.

في ٣٢ مجلدا ضخما تضم الشعر العربي قديمه وحديثه ، كل مجلد يقع في ٦٥٠ صفحة من القطع المتوسط

ديوان الشعر العربي كله بين يديك في مجموعة واحدة تصدر أجزاؤها تباعا .

●

موسوعة الفن العربي

... الفن والتزيين وهندسة الماضي المعمارية في ٢٠٠ لوحة اكثر من نصفها بالالوان ، تضمها ثلاثة مجلدات كبيرة ، أصدرتها مكتبة خياط للكتب والنشر في بيروت وباريس ، وهي أجمل هدية عن الفن الاسلامي ، من تصوير وتصميم « بريس دافين » الذي كان قد درس طوال أعوام مظاهر الفن العربي ، ليخرج هذه الموسوعة عن أجمل آثار العالم الاسلامي .

تحفة رائعة تزين مكتبة بيتك أو مكتبك ، وتصور أدق ما توصل اليه الرسامون والمزخرفون والنقاشون الاسلاميون والعرب في العصور الماضية .

●

أطلب الموسوعتين من شركة خياط للكتب والنشر ، شارع بلس بيروت ، أو من فرعها في باريس :

Les Editions KHAYAT 25, Rue Berne
75008 PARIS Tél : 293 - 68 - 33